

وما هو بقول ناقد !!

أن يكون الدكتور ماهر شفيق فريد «ناقدا عربيا» لا يقل غرابة عن قولنا «قصيدة النثر» فالرجل متخصص فى أدب الإنجليز ويفترض أن يكون له رأى فى الأدب الذى نذر نفسه له، لكن الأمور الآن أن أمثال د. ماهر يتركون ما يمكن أن يفيدوا فيه، ويهرعون الى ما لا قبل لهم به ولا طاقة، ومن ثم تزول الغرابة اذا قال هؤلاء إن هناك شيئا يرضى به العقل يسمى «قصيدة النثر».

لا شئ أدعى إلى الاستخذاء من محاولة مسخ فننا الأول «الشعر» لا لشيء إلا لكى يكون مثل فن أجنبى، إذا صح فى لغته فلا يصح فى لغتنا، بل إن العقلاء منهم لا يرضى أن يمهر نثره - وهو فى قمة للشاعرية - بكلمة «شعر» ويقرأ المرء خوان رامون خمينيث فى «أنا وحمارى» على أنه نثر، وكذلك رائد الحداثة روبن داريو يسمى الأشياء باسمائها، وهب أن هؤلاء سموا نثرهم شعرا فهم أحرار فى لغتهم، ونحن أحرار أيضا أن نأخذ عنهم أو نهدر كلامهم إذا لم يتسق ومنطق الفن الشعرى فى لغة العرب، والا فأى استخذاء هذا !!

الشباب التافه الذى يكتب ما يسمى «قصيدة النثر» ويرفضه د. ماهر، لماذا يرفضه ؟ لأن أصحابه شباب أو شابات ليس هذا بعله، فالشباب سوف يكتهل أو يشيخ ويكون مثل أدونيس فيما بعد، ما الذى كتبه شيخهم الأكبر وشيعته سوى العجز الذميم، وهدر قواعد فنية لا لشيء إبداعى عظيم وكيف بقبول هذا الهذر الهزل : مكان ولادتي ١٩٣٠ الشمس قدم طفل ، عرفت أقل من امرأة لأننى تزوجت بأكثر من امرأة، عرفت أقل من رجل ، لأننى تزوجت بأكثر من رجل . . . الجسد أطول طريق إلى الجسد، إلى آخر هذا اللغو الذى يعبى أمثال المعرى والمتنبى وشوقى وصلاح عبد الصبور وحجازى وغيرهم، وهو لا يعدو لعب الحواة والمهرجين الذين تشك فى قدراتهم العقلية.

دعك إذا من العناصر الشعرية الباطنة والإيقاعات الداخلية التى يدعو اليها

د. ماهر ود. محمود الحسینی وغیرهما، فکیف یدرس الأساتذة لطلابهم مثل هذا الکلام ووصفه لهم ولا يستطيعون العودة فیہ إلى نظام أو قاعدة. ثم لماذا الإصرار علی أن یکون الناس جمیعاً شعراء، أدونیس وشیعته كانوا یقولون کلاماً لا بأس به أولاً ثم انصرفوا إلى العبث ونعتقد أن الشعر الحر کان إحدى الوسائل لهذا النبت الشیطانی «قصيدة النثر» وأصحابها یرون فی الشعر الحر تخلفاً ورجعية !!

سوف نستأذن الداعین الی هذا العبث أن نتمسح مثلهم بالإیقاعات الداخلية والعناصر الشعرية الباطنة، أن ننشر مرة أخرى کلام الرافعی وحسین عقیف وطه حسین والمنفلوطی والزیات علی طريقة دواوین الشعر، ونلغی النثر من لغتنا إلا إذا کان إحصاء أو علوماً، وربما یعاتبنا دعائه بأن نزع العلوم التطبيقية لتوترها وتوتر أصحابها ضمن «قصيدة النثر» .

بل سوف نستأذن أكثر بأن نعيد طباعة القرآن الکریم - والعیاذ بالله - وأن ننشر دواوین منه «سورة مریم، طه، جرء عم یتساءلون، الرحمن» علی طريقة الأسطر!! ونعتقد أن الإیقاعات الداخلية بارزة بوضوح فی کل هذا !!

بل سوف أستأذن د. ماهر وأضم مقاله فی الأهرام الأدبی ٢/٥/٩٥ تحت دائرة «قصيدة النثر» ففیہ کل شرائط هذا الکلام الذی یدعوا إلیه، خاصة هذا الانفعال غیر الموضوعی، وهو من عناصر الشاعرية - وأعدہ - ونحن من المحافظین الزائدين عن الحاجة، وحسبه أن یظل وحده ففیہ کل الکفاية - أن نسمع کلامه فی الأدب العربی إذا سمع الإنجلیز آراءه فی أدبهم، وإذا أدرك موسیقی الشعر العربی كما یدرکها المستشرقون، وإن کنا نخشى علی أنفسه أن یکون من الراغمین !!

اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم

خلاصة فكر أصيل متجدد ، وتجربة عميقة تحيط بالعربية أصولاً وفروعاً ، ترفده نظرة دءوب ، تستلهم التراث غائر الجذور ، وتستضيء بالوافد المعاصر دون أن تعشى به ، حيث تستعصم بفكر ناقد ، يرتكن إلى غيرة ونخوة .

مؤلف هذا الكتاب الدكتور كمال بشر العالم اللغوى الكبير ، وعضو مجمع اللغة العربية ، وأستاذ العربية بدار العلوم ، وله تاريخ حافل فى هذا الحقل المنذور له ، منذ بداياته الباكرة ، حفظاً للقرآن الكريم ، ودراسة فى الأزهر ثم دار العلوم ، وحصولاً على الدكتوراة من جامعة لندن ، وقد استقام له نطق متفرد منذ ميعة صباه الأول ، وتبصراً بفروع العربية أصواتاً وصرقاً ونحواً ودلالة ، وأثمر ذلك كله ثمرات مباركة تأليفاً فى العربية وترجمة إليها من الإنجليزية ، وقبل ذلك وبعد ذلك غيرة كريمة على لغته ، حين يفتقدها بعض من درس دراسته ، وألف مثله ، وهو محاضر من الطراز الأول يروك منه ذكاؤه ، وجميل عرضه وقوة عارضته ، ولغته المنخولة الموقعة وإن كانت نثراً .

جاء كتابه هذا خلاصة مركزة فى أوان النضج الشديد والتريث فى المعالجة ، وإن لم يخل من حماسة موضوعية نراها حقيقة بهذه الصفة ؛ لأنها حماسة الشيوخ الكبار لاتأنف من التجديد وفتح النوافذ ، ماكان هواؤها نقياً ، بريئة من غرارة الشباب وإن كان فيها الشباب .

تكسر الكتاب على بايين كبيرين ينتظمان عدة فصول ، الباب الأول تحدث عن «الواقع المعاصر للغة العربية ، وموقف الناس من هذا الواقع» وقد عاجلت فصوله الثلاثة ، الواقع المعاصر للعربية ، والمشكلة اللغوية بين الوهم وسوء الفهم ، واللغة بين الطبع والصنعة ، وتناول فى الباب الثانى «من مشكلات اللغة العربية» المشكلات القديمة عن تقعيد اللغة ومناهجه ونظام الكتابة العربية ، والمشكلات الحديثة ، عن النظرة الاجتماعية والنزعة إلى التغريب ، وسيطرة العاميات ، والعربية فى دور التعليم والعربية لغير العرب .

وعنوان الكتاب بداهة يشى بأزمة تتأشب بين الواهمين وسيئى الفهم ، وكلاهما لاحق له فى قول عن العربية ، لكن الواغلين عليها كثير ، يتداعون ببضاعة مزجاة، وهؤلاء خطرهم داهم ، حيث يملكون من وسائل التأثير مالا يملكه أهل اللغة الذين هم أحق بالكلام ، لكن الدكتور بشر امتلك من الشجاعة ما يواجه به تلك الجحافل التتريه ، الداعيين إلى العاميات حيناً ، ولهم صوت زاعق جداً هذه الأيام وإلى مستوى العربية المعاصرة حيناً آخر ، وتلك قولة حق يراد بها باطل ؛ لأن الحديث عن المستويات فيه تمزيق لوحدة اللغة وإن لبس طيلسان الموضوعية والبحث العلمى ، كما واجه المؤلف كليات التربية- وتقتضى حملة خاصة - التى تدرس العربية قشوراً مخنوقة بمناهج التربية ، أما مدارس اللغات وأقسام اللغات الأجنبية بالكليات النظرية ، وإنشاء جامعات أجنبية ، فكلها تحاصر العربية وأهلها فى رأينا ، وتنزوى العربية تعتصم بصمودها .

وأوجه الاتفاق بين الأستاذ الكبير وبينى أكبر من أوجه الاختلاف ، حيث أرى عدم الأخذ بتعدد الأنظمة إلا فى مجال البحث العالى . . أما الدرس للطلاب فينبغى عدم الأخذ بالتعدد ، نظراً لطبيعة العربية وتاريخها ومثل له الأستاذ بالأفعال الجوفاء (قال وباع) وللبحث فى قواميس اللغة ، كما ألس حيرة فى تعبير الأستاذ عن «اللغة الفصحى أو الفصيحة» حيث يريد أن يترخص ، ونعتقد أن «الفصحى» أدق حيث تشى بالتميز وهو مطلوب وله أهله ، كما يمكن أن يكون أفعال التفضيل على غير بابيه ، غير أنى أحمد للأستاذ بشر موقفه من العاميات ومن الرطانات الضاغطة جاهلة وسيئة النية ، وأحمد له لغته «الفصحى» لا «الفصيحة» فقط ، فى بيانها المشرق ولعله حين كان يكتبها إنما كان ينطقها مستمتعاً؛ لأنها بيان راسخ فى غير حاجة إلى طلاء ، ولو كان طلاء الزينة والرواء .

من حليث اللغة والشعر

يكثّر اللغظ كما يكثّر الغلط هذه الأيام حول اللغة وتدنى مستواها ، وكيفية العلاج والخروج من الأزمة ، وحول الشعر مستوى ومصطلحاً ، وجمهور الشعر ، وكيفية اجتذابه مرة أخرى بعد إحجامه .

والحق أن استشعار الأزمة باب من أبواب علاجها إذا صحت العزائم وشحذت الهمم ، وقد ألف الناس جمعيات وعقدوا ندوات ومؤتمرات ولجاناً تجتمع وتدرس وتقترح الحلول وتقدم التوصيات ، غير أن الأمر لا يخرج عن باب الكلام وتنفض الاجتماعات بسلام .

فى جانب اللغة ثمة أكثر من جمعية ، لاتفتقر إلى حسن النية والفال الحسن ، وكل منها لا يؤدى إلى الغاية المرجوة وهى عزيزة عسيرة الطريق ، بعد أن طال الأمد بأبناء هذه الأمة آبقين عن لغتهم وعن الاهتمام بها ، لاثذين بلغات أخرى تتمثل فى التعليم الأجنبى . وإن لبس مسوح العربية أو المصرية - منذ البواكير الأولى للناشئة ترتضع الإزراء بلغتها وتلوى لسانها بلغة أخرى ؛ لأنها فى رأيها لغة الوجاهة والشارة الاجتماعية الملحوظة ، وتثول القضية إلى فكر آخر يربطه بالعربية شهادة الميلاد أو الاسم .

ومن عجب أن مصر - وهى رائدة العروبة - كانت أيام الاحتلال تهتم بلغتها كما تهتم باللغات الأجنبية الأخرى ، ولم تكن الأزمة مستحكمة كما هى الآن وكان مقاومة المحتل كانت تبعث فى عروق أبنائها النخوة أو «المصل» الذى يطارد «فيروس» العجمة الضارية ، وحين آل أمرها إليها ركن الناس وادعين آمين ، مع أن الواجب أن تنهض أكثر وأن تتقدم لغتها كحال اللغات لدى الأمم الناهضة .

ذهبت إلى إسبانيا عاثر الخطى فى الإسبانية وأردت شراء خبز - لايبيع محله غير الخبز - فنطقت ban بدلاً من pan الكلمة الصحيحة وإذا بالبائع يقول ليس عندى فاستخدمت لغة البكم «الإشارة» فنطقها صحيحة بطريقة أحسست منها أننى

أخطأت خطأ جسيماً ومعه حق ويكرر الرجل الصواب ، ولم ينس أن يشيعني بازدرء استحقه لم أفهمه ساعتها !!

هذا نمط نحن فى حاجة إلى مثله حتى من المتخصصين المتساهلين ، الذين لا يراعون إلا ولا حرمة .

وحرمة اللغة من حرمة العرض . . نحن لانستخدم العربية استخداماً صحيحاً وتقلص هذا الاستخدام حتى فى قاعات الدروس الجامعية التى تعلم العربية ، وغدونا نستمع إلى ما يشيع من الفصحى والفصيحة تساهلاً !!

الإعلانات التى تملأ وسائل الإعلام والنشرات التى تكتب بلغة أجنبية وأسماء المحال التجارية وغير التجارية وأحاديث المثقفين المطعمة بالكلمات الأعجمية ، وكأن العربية إثم أو عار أو عاجزة عن مطاوعة الألسنة .

حتى الأماكن التى تنتظر منها لغة سليمة بريئة فى نطقها وقواعدها من اللحن والخطأ أصبحت هى الأماكن التى تنتظر منها العجب فى الأخطاء قبل غيرها ، ولعل القارئ يلقى السمع إلى كثير من خطباء المساجد - وكنا نتعلم منهم العربية قبل دروس الدين والفقه - ليدرك أن مخارج الحروف أصابها الإعلال والإبدال ، حتى فى نطق القرآن الكريم والحديث الشريف ، وغاب عنها علم التجويد الذى كنا ندرسه فى مراحل الدراسة الأولى بالأزهر فالقاف كاف والذال زاي ، وبقية الحروف لاتعرف لها هوية . . ودعك من النحو واللغة فالأصوات هى البابة الأولى فى اللغة ، وعلى القارئ - غير مأمور - أن يذكر B و P وما شاكل ذلك أما الآيات القرآنية فلاتعرف النحو على الإطلاق على ألسنة الجمهرة منهم .

هناك حلقة مفقودة فى تعليم العربية ندور حولها ولانكاد نباشرها لمساً تتمثل فى استشعار العيب والنقص ، حين تشيع هذه الظاهرة التى لن يجدى معها عقد ندوات وجمعيات ومؤتمرات وتوصيات . . ولابد هنا من جهة منفذة تملك الثواب والعقاب ، وتملك إيجاد هذا الإحساس ورعايته ، وربما كانت وسائل الإعلام كلها تملك العلاج النافع السريع ، حين تطبق هذا على العاملين بها ؛ لأنها تستولى على ألسنة الناس فى التو واللحظة إعلاناً وخبراً ومسلسلاً وأغنية وحديثاً ، وربما

غاب عن القائمين على تربية النشء طريقة تعليم النحو وقواعد البلاغة ، ولايتأتى ذلك إلا من خلال نصوص أدبية جميلة تستنبط منها القاعدة والمثل ؛ لتأتى بعد ذلك مرحلة التوسع فى المبسوطات النحوية والبلاغية ، ولعل المرحلة التى كان يدرس فيها الطلاب النحو الواضح والبلاغة الواضحة لعلى الجارم . . . والمتخب من أدب العرب هى المرحلة التى تعلم منها الناس كيف يعرفون النحو ، وكيف يتذوقون الشعر ويتدسسون فيما بعد إلى فهم لغتهم ، كما يجب . . . يستوى فى ذلك الطلاب المتخرجون من أقسام اللغة العربية أو اللغات الأجنبية أو حتى أقسام الفلسفة والتاريخ والاجتماع وكان لنا منهم كتاب ومترجمون كبار مثلوا زمن النهضة فى القرن الماضى .

ومن اللغة إلى الشعر الذى هو «لغة شاعرة» . . . كان لدى الناس خيط ذهبي يربطهم بماضيهم الشعرى الزاهر ، يتعلقون به وينسجون له امتداداً يتطلع إلى التجديد والأفق الفسيح ، ويحس المتابع بأن هذا الذى يقرؤه نبت فى تربة الشعر الصحيح دون أن يحمل سبخ هذه التربة ؛ لأنه يتنفس فى هواء نقى بعيد عن الجذور الميتة «التقليد» أو التسلق الهلامى المبعد له عن أصالته ولون سحته . . . هكذا كانت النهضة فى مصر على يد البارودى وعلى «اليفى» ، الذى سبق البارودى - وهو من أصل دمياطى - فى شعر الشخصية وعلى يد شوقى والجارم وحافظ ومطران وإخوان هذا الطراز ، ثم امتدت النهضة واستحصدت لدى جماعة الديوان العقاد والمازنى وشكرى ونعت وتطورت عند جماعة أبوللو ، وإخوانهم من شعراء مابعد الديوان عبدالرحمن صدقى وأحمد مخيمر وأضرابهم .

كل هؤلاء مجددون ذلك التجديد ، الذى يتعلق بطبيعة الشعر العربى تجربة وأداءً ، وامتد هذا التجديد لتستظل به المسرحية الشعرية والقصة الشعرية ، الخيط فيه ممتد وموصول ومشرتب للأفق الواسع ؛ حيث اطلع بعضهم على شعر الأمم الأخرى ولم يذوبوا فيه ، بل أخذوا منه مايتفق وطبيعة لغتهم وشعرهم ، وتلك هى الفائدة المرجاة .

ثم نجمت حركة الشعر الحر فسلكت طريقاً آخر نختلف حوله أو نتفق . . . لكننا نتفق حول حقيقة واضحة هى تغيير الطبيعة ، كما نتفق أيضاً على أن بعض كبار

هذه الحركة نبتوا فى رحم الشعر العربى الأصيل سرى فى كيانهم ، ولا يمكن للناقد فى هذه الحالة أن يسمهم بالعجز ، وإن كان كثيرون منهم رائدهم العجز ممن دخلوا الحركة دون ركيـزة شعرية راسخة . . ومن هذا الكثير كبار ، يقرأ المرء كلامهم فى الشعر الموزون المقفى فلا يهتف به إلا هاتف الخذلان والعجز ، لكنهم أذاعوا هذا الكلام بما يملكون من وسائل البث والإعلان وحين رحلوا أو سكنوا سقطوا من ذاكرة الشعر والناس .

أساء هؤلاء العجزة إلى الحركة وهم كثيرون ، كما أساء النظامون إلى الشعر الموزون المقفى ، لكن القارئ سرعان ما يلفظهم . . ومن ثم كان بلاؤهم أخف ، ولأن الباب إذا اتسع لا يضيق عادة فقد خلف من بعد حركة الشعر الحر أو نسل منها إن شئت أرادوا أم لم يريدوا خلف أضاعوا الوزن أو أضاعهم ، لأنهم لا يملكونه ، واتبعوا سبيل النثر ولماذا لا يجربون وقد جرب قبيل قبلهم فأروا فى السابقين من حركة الشعر الحر جاهليين وتقليديين ، وأن الوزن ليس جوهر الشعر، وحسب المرء أن يكتب خواطره فى كلام يدابر بعضه بعضاً يكتنفه الغموض، حيث لا يعرفون الإبانة وهى قدرة، وتلعنه اللغة لركاكاته وتهافته . . يتصدرون المجالس والندوات ، وفى كثير منهم قحة وادعاء وفى بعضهم قدرة اجتماعية على جذب أشباه النقاد ، وهم بلاء فى كل زمن أشادوا بهم نفاقاً وارتزاقاً ؛ خاصة إذا كان هذا الدعى صاحب برنامج أو عمود صحفى باهت . . وفى هؤلاء الأشباه ظمأ إلى الشهرة ، وفى بعضهم خشية غريبة أن يهتم بالتخلف وعدم مسامرة «الجديد» يملأون الدنيا ضجيجاً بهؤلاء «الكتبة» وصدق هؤلاء وأولئك أنفسهم حين خلت الساحة ، فغدوا «شعراء العصر ونقاده» وأحس أصحاب الشعر الحر بالخطر على الشعر واللغة وربما على مكانتهم وتاريخهم . . فحاربوا هذه الحركة الأخيرة، كما أحس النقاد منهم بهذا الواغل الجديد ، فآلفوا الكتب فى محاربتهم، بعد الخراب والدمار الذى ألحقه بالشعر - فن العربية الأول وسر أسرارها - وهم أول العارفين أن التسبب يستتبع تسيباً ، وأن الاستسلام يؤدى إلى ما هو أخطر منه .

العلة فى رأينا تنول إلى غياب القاعدة أو «المصطلح» ما الشعر أولاً ! نحن مع

التجديد أولاً وأخيراً ، ومع التجريب فى نظام القاعدة ، ونعتقد يقيناً أن الوزن الخليلى - تجربة ودراسة - يتسع لشاعر مجدد لديه مايقوله وفى ذرعه الإبانة عن نفسه يستوى فى ذلك شعر الغناء وشعر المسرح والقصة ، وأن الشر مكانه حظيرة الشر . . وربما يكون أفضل من الشعر إذا رزق الكاتب الموهوب وأن الشعراء من أبناء الأمم الأخرى ، خاصة الكبار ومنهم ، يرون نثرهم نثراً وإن كان فى ذروة الشاعرية منهم خوان رامون خمينث «نوبل ١٩٥٦» وروبن داريو «شاعر نيكاراغوا الأكبر ورائد الحداثة» ، ولهم دواوين شعرية خالصة فى ذروة عالية من الشعر .

أما عندنا فذوو العاهات من أصحاب النثر يقحمون أنفسهم فى ديوان الشعر ، وربما لو خلصوا للنثر؛ لكان لهم مكانهم الذى يعتز به ذلك الفن الرفيع ومكّن لهم أن دور النشر - حتى القومية منها - تنشر كلامهم على أنه شعر ، ويتقدمون به إلى جوائز الدولة غير أنهم يرتدون ، لكن الأمور إذا لم تؤخذ بجد . . فسوف يجدون فى المستقبل القريب من يمنحهم جوائز الشعر فى مؤسسات الدولة ، وقد تسرب إليها بالفعل بعض الأعضاء ، كما تسربوا إلى متتديات الأدب المصرية والعالمية باسم الشعراء ، ونعتقد أن المسألة فى حاجة إلى دراسة نفسية تفضح هذا النقص والتشوه ؛ لأنه لايتعلق بالكلام بل بشخصية كاتب الكلام .

إن حماسة التجديد تدفع ببعض الناس إلى الطرف المقابل ، وتركبهم مراكب يترث دونها الحصفاء ويتقدم الزمن فتخف هذه الحماسة ، يعثرها شئ من الخشية على مستقبل اللغة والشعر ، وهى خشية محمودة ومشكورة . . ولكن الزمام أقلت كثيراً ، ويحتاج إلى تضافر جهود كثيرة ربما كان «الكلام الموزون المقفى» صاحب الكلمة فيه ، إذا أردنا لهذا الزمام ألا يطيش ، وأن يظل فى أيدينا نعيد به الاتزان ونعيد القاعدة ونعيد وجوهنا ، قبل أن تطمسها الضغينة النكراء على لغتنا وعلى شعرنا وعلى هويتنا .

أخلاقيات العمل الإعلامى

موضوع عسير ، لندرة المصادر العربية من جهة ، وللقضايا الشائكة التى يعالجها ؛ حيث يحتم دراسة الوثائق والقوانين ، والاستقراء التاريخى ، لافى مجتمع واحد ، بل فى مجتمعين كبيرين كالمجتمع الأمريكى والمصرى ، واستثناساً بالمجتمعات الغربية الأخرى ، توضيحاً للظاهرة ، ومقارنة بين فهم النص وتطبيقه .

إلا أن هذا الموضوع مع عسره شديد الجاذبية ؛ لأنه يقفك على ظواهر حيوية ، خاصة حين تتناول الدراسة المجتمع الذى تعايشه ، وتحسس مشكلاته ، وتقارن فى الوقت ذاته بين مجتمعات أخرى ، لاتتفق فى التقاليد والعادات والقوانين .

ومؤلف الكتاب الأستاذ الدكتور حسن عماد مكاوى رجل تخصص فى الدراسات الإعلامية ، ومتخذ لها الوسائل العلمية ولايطرق الموضوعات الشائعة ، بل إنه يعالج عويص المسائل ، التى لاتنحصر فى حقل تخصصه فحسب ، بل يمد بصره إلى التاريخ والفلسفة والقانون ، مرتباً أن الدراسات الإعلامية لها صلة بهذه المجالات ، بل لاتقوم إلا بها ، وإن كان المظنون غير ذلك .

يتألف هذا الكتاب من أربعة أبواب ضخام ، كل باب يضم جملة من الفصول ، تحتوى على معلومات وفيرة ، تركز على مصادر أجنبية كثيرة ، فعالج فى الباب الأول تطور حرية التعبير والصحافة ، وفيه فصلان عن الإطار التاريخى والفلسفى لحرية التعبير ، وعن حرية الصحافة فى المجتمعات المختلفة ، ويعرج على هذا المفهوم فى المسيحية والإسلام والمجتمعات الغربية والعربية ، وتناول فى الباب الثانى حرية التعبير وحقوق المجتمع ، وفيه ثلاثة فصول : الرقابة الحكومية وقوانين التحريض ، ورقابة التنظيمات الخاصة لوسائل الإعلام ، ووسائل الإعلام والحكومة : من يراقب من ؟ .

وفى الباب الثالث تحدث عن حرية التعبير وحقوق الإعلامى وفيه فصلان :

الحق فى حماية سرية المصادر الإعلامية ، والحق فى معرفة مايدور فى المنظمات الحكومية ، وفى الباب الرابع تناول حرية التعبير وحقوق المواطن وفيه خمسة فصول : الحق فى حماية الشرف والاعتبار من جريمة القذف ، والحق فى حماية الخصوصية ، والحق فى محاكمة عادلة ، والحق فى النشر ، والحق فى حماية الآداب العامة من الأعمال الفاحشة .

والحق أن هذه المباحث مسهية ومتعمقة ، ولاتهم القارئ المتخصص فقط ، بل تمتد إلى اهتمامات القارئ غير المتخصص ؛ فهى تشبع رغبة الإعلامى ، والمؤرخ ، ودارس الفلسفة والقانون ، وتهتم رجل الأخلاق والضوابط العامة ، وقد أسعدت المؤلف مراجعته المتنوعة ، محسناً استخدامها والإفادة منها ، ومناقشتها ، ومباحث القوانين فى تصورنا عسيرة ومملة ، إلا أن الدكتور عماد استطاع فى حذق أن يصوغها ، فى لغة محددة وعلمية لاتزيد فيها ولافضل .

ويحس القارئ خلال المقارنات التى يعقدها مدى حرصه على الموضوعية العلمية ، وفى الوقت ذاته يحس هذا الفيض الودود ، وهو يعالج القضايا فى بلده مصر ، فتسرى بين سطوره تلك الأمنيات ، التى يلمحها القارئ لسد الثغرات التى يمكن أن تعترى اللوائح والقوانين أو تنفيذها أخلاقياً . . . هنالك تحس أن الكاتب إنسان أولاً ، تؤرقه مشكلات وطنه ، وكأنه يقول لك إن بلدنا يستحق تلك الحرية فى التعبير وفى النشر ؛ لأن أخلاقياته وتقاليده وآدابه المرعية لها ذلك السلطان ، الذى يجعل العمل الإعلامى فى بلد مثل مصر أخلاقياً فى المقام الأول .

وفى الكتاب طرائف كثيرة ، ومفارقات ترضى القارئ المتعجل والمترث أيضاً ، غير أن هذا القارئ فى حاجة إلى سياحة فى تضاعيف هذا الكتاب ، الذى أضاف إلى المكتبة العربية مؤلفاً جديداً فى حقل عسير ونادر .

شعر الحداثة فى مصر

هذا كتاب ضربت حوله أسوار من العزلة والاحتجاب ، وكأنما أريد له أن يظل فى الأقبية الرطبة ، يتهامس حوله الناس دون أن يعلو صوت بالحديث عنه ولولومًا واستهجانًا وهو ضرب من الكنود ، الذى لا يلقى بحركة النقد ، التى يجب أن ترى وتحلل وترفض وتقبل ويثول الحال إلى مؤامرة من الصمت ، تحجب الصوت الآخر ليموت «بالسكتة القلبية» .

لكن بصيصًا من الضوء تسرب فى تلك الحوالمك إذ أقامت جماعة دار العلوم برئاسة د. الطاهر مكي بمناقشة نقدية لهذا الكتاب ، قام بها الأساتذة على عشرى وشفيع السيد وعبد الحميد شيحة ، ودار حولها حوار من جمهرة الحضور .

والدكتور كمال نشأت شاعر أولاً وناقد ثانياً ، وشهدت بداياته جماعة أبوللو وخرج عليها وعلى القصيدة الموزونة المقفاة ، هو وبعض رفاق جيله ، مثل فوزى العنتيل ومحمد الفيتورى ، وكتب شعراً حرّاً ثم احترف النقد وعمل بالجامعات العربية ولم يهجر الشعر ، فأصدر طائفة من الدواوين .

وقد درس فى كتابه ابتداءات الحداثة وانحرافاتهما وأزمتهما ، واستغرق ذلك كله أحد عشر فصلاً ، دار فيها الحديث عن شعر الحداثة فى مصر وعن معجم أودنيس . ومعجم شعراء الحداثة وعن تركيب الجملة لديه ولديهم وتناول ظاهرة الغموض والتصوف والصورة وقصيدة الشر والإيقاع وانتفاء الوجدان وشعر الحياة اليومية والنقد الحداثى . .

وهذه الظواهر احتشد لها المؤلف ، ورجع فيها إلى كم ضخم من الكتب والدوريات وصنف كل هذه الظواهر ورتبها موضوعياً وقرن الأشباه والنظائر محللاً وناقداً رابطاً بين هؤلاء الحداثيين وأودنيس وتقليدهم له .

وواضح أن الجهد المبذول يعبى فرداً واحداً . . لكن المؤلف كان متعقباً للظاهرة وواضح كذلك الإدانة لهذه الانحرافات .

وفى الحقيقة أنا أتفق مع المؤلف فى كثير مما ارتأه ، مدرّكًا معه مدى الخطر الذى يتهدد الشعر العربى الحقيقى ولغتنا الشريفة والأدب العربى فى مصر خاصة ، لكن اختلف معه أيضًا فى كثير آخر ، ولعل أهم ماختلف فيه أن هذه الحداثة نسلت من الشعر الحر حين ارتضى الانحتم فى إلى قواعد ضابطة ، وهاجم دعائه منذ نصف قرن تقريبًا القصيدة الموزونة المقفاة ، ولها قواعد الراسخة ودعك ممن ينتسبون إليها نسبًا غير شريف لأنهم أعداؤها قبل الحداثيين ، وأملى لهؤلاء الدعاة نقادهم والطرفان فى مآزق حقيقى الآن لأن أصحاب الحداثة أفلتوا من سلطتهم ، وكلما دخلت أمة لعنت أختها . . ويرى الحداثيون الآن أن أصحاب الشعر الحر جاهليون ، وتجاوزهم الزمن وهى التهم نفسها التى كان يوجهها أصحاب الشعر الحر إلى أصحاب الشعر الموزون المقفى «وكما تدين تدان» وغدا أصحاب الشعر الحر وكأنهم يدافعون عن وجودهم هم ، ولو لم تصبهم سهام الحداثة فرمبا لا يعبأون ، ونقادهم الآن فى حيرة واصبة ، يوجهون ضرباتهم أيضًا إلى الحداثيين، وكانوا يسبحون بآلاء أصحاب الشعر الحر ويقولون دعوهم فترة من الزمن حتى تنضج تجربتهم وهاقد نضجت وولدت نسلًا غير شرعى ، لا يعترف بها . . ومن هذا المنطق ذاته أقول دعوا الحداثيين أيضًا خمسين سنة أخرى ، حتى تنضج تجربتهم، حرية بحرية وهل حرام على بلبله الدوح ؟

دكتور كمال : أنت مع أصحابك أحدثم خرقًا للقاعدة الذهبية ، فلا بأس من خرق آخر والبقية تأتى ولست أخفى «شمتاتى» فى أصحابك ، لكنها شماتة متفائلة ، حيث تفضى الاستهانة إلى استهانة ، وحين يدرك الناس هذا يفقدون ثقتهم فيما هو شائع ومبذول ، ويسحثون عن الاصيل ولو كان متواريًا والساحة مليئة بالشعراء الأصلاء ، يشكون مما يشكو منه كتابك من أسوار العزلة ، ولعل التحية المقرونة بالشماتة دليل على أن المستقبل القريب «للشعر الشعر» .

هل الرواية ديوان العرب؟

الشعر العربى هو سر هذه اللغة ، وهو أحد الأدلة على إعجاز القرآن الكريم ، والنفوذ إلى مضايقه يعسر على كثير من أبناء هذا الجيل ، وإذا كان هو ديوان العرب وفنهم الأول . . فينبغى أن يظل كذلك حتى ولو حاصرت فنون أخرى أو شوهت معاملة فئة تتعاطاه دون فهم أو موهبة .

والفن الروائى والمسرحى فن مستزرع فى لغة العرب ، وإن حاولنا رؤية جذور لهما فى التراث القديم ، ومن ثم لن يكون لهما - فيما نرى - مالمشعر من جذور موهلة فى هذه اللغة ، إلا إذا استطاع كاتبهما أن تنهض لغته ، وأن تكون له لغة داخل اللغة العامة وبذلك يقترب من فن الشعر ، ونحن - عادة - نشئ على لغة القصة والمسرح النثرى حين تكون مكثفة ومتوترة وشاعرية فى المقام الأول لأنه ابن اللغة الشاعرة .

ولعل كاتبنا الكبير نجيب محفوظ قمة فى لغته لأنه استطاع باقتدار - أن يطوع الفصحى العالية لمقتضيات الفن القصصى وشرائطه ، ولم يتأت له ذلك إلا بالوقوف العميق على طرائق التعبير العربية فى نماذجها العليا ، كما تأتى لآخرين أمثال المازنى والعقاد والجارم ويحيى حقى ومحمد عبدالحليم عبدالله وآخرين لأن أغلب كتابنا فى القصة والمسرح وأغلب نقادهم كذلك لا يقفون وقوفاً جيداً عند تراثنا العربى ، كما يصنع الأجانب وحسبنا أن نذكر أنطونيو جالا ومسرحياته ورواياته؛ لنرى طرازاً من الفن الرفيع لغة وتقنية ، ربما يتساهل فيها بعض كتابنا فيقعون فى منتصف الطريق .

والدكتور على الراعى فى حوارهِ المنشور بالأهرام الأدبى ٩٤/٩/٢٠ قال كلاماً غريباً ، وإن كان لا يستغرب منه ، فالرجل أنفق عمره فى نقد الرواية والمسرح وميل الإنسان لعمله شئ غريزى ، إلا إذا جار على فنون أخرى لمجرد هذا الميل لا لسبب موضوعى ، ومشكلة الدكتور على الراعى ومن يحذون حذوه أنهم متخصصون فى شئ واحد فقط ، مع أن الفن لا يتجزأ وله وجهة نظر نحن

نختلف معها خلافاً جذرياً ؛ لأن التوجه مختلف . . نحن نعتقد بيقين أن الدكتور الراعى متواضع المعرفة بفن الشعر العربى ، ولذلك ساء ظنه بالشعر وبشعر العقاد خاصة وبمقولة العقاد عن فضل الشعر على القصة وبصرف النظر عن موقف العقاد . . فإن كثافة الشعر عن القصة شئ لا يمكن إنكاره ، وحسبنا أن نقول شعراً فى الغزل لا فى التصوف فقط كما رأى الدكتور الراعى ، يقول الشريف الراضى :

وتلفتت عيني فمد خفيت عنى الطلول تلفت القلب

ويقول العقاد - الذى لا يعجب الدكتور الراعى :

لم أدر كيف يتاح لى نسيانها وخيالها فى ناظرى معلق
حتى نسيت فعدتُ أذكر أنها كانت هواى فلا أكاد أصدق

مثل هذا الشعر يحتاج إلى صفحات من الرواية لتقول ماقاله ، وبين يدي آلاف الأمثلة لمثل هذا الإيجاز المحكم ، ذى المضامين المتفجرة . . ثم إن الرواية - كما رأى العقاد - تروج بين طوائف غير طوائف الشعر الذى يحتاج قارئه إلى استعداد خاص ، صحيح أن ثمة روايات جيدة ، ولكن جودتها لاقترباها من الشعر ، ويرى الدكتور الراعى أن الشعر لينقذ نفسه عليه أن يكون مسرحياً ، وكان بودنا أن نرى هذا المخرج ، لولا أن الشعر سيظل غنائياً ومسرحياً فى كل لغات الأرض ، وثمة مسرح شعري لايساوى الورق الذى كتب عليه .

وإذا رأينا الشعر فى أزمته الآن . . فلا يكون البديل الرواية أو المسرح ، بل علينا البحث وعلاج الأزمة ، ولن يكون إلا بالتعليم الجيد ، والوقوف على التراث الحقيقى لهذه الأزمة ؛ لتعيش عصر الشعر فن العربية الأول ، وعلينا أن يظل فننا الأول ، غير أن الفساد قائم ، ومحاربة الشعر عنيفة ، وحسبنا ضياع مصطلحه الآن ، ولبيلة القارئ والناقد والمبدع . ولم يحدث هذا فى الرواية أو المسرح رغم التجريب ، ونعتقد أنها حرب مقصودة لأنها تطعن العربية فى الصميم ، والناقد الذى يتخصص فى النثر - متقوقعاً - ليس بالناقد المستقيم حكمه فى لغة العرب ، وكم كنا نود أن نسعد الدكتور الراعى إيماناً بما يراه . . لكن ليس بأيدينا أن نزجى إليه مثل هذه السعادة فنحن نناقضة أشد المناقضة .

إنى أشم رائحة الفأر

ظنُّ يساورنى وأدافعه ، وكم أود أن يكون من بعض الظن ، لأنه يتعلق بلغة هذه الأمة ، وبشعرها الذى هو جوهر فنها ، وآية ذلك أنى أرى ما يحاك ضد هذه اللغة وضد فنها الأول ، بيد أبنائها لا بيد عمرو ، فأشم رائحة الفأر كما يقال فى المثل .

جاءت حركة الشعر الحر لتنسف نظاماً راسخاً ، ربما كان من أدق الأنظمة ، واستبدلت به «نظاماً ناقصاً» إذا صحت تسميته بالنظام ، لأننا - فى الحقيقة - لانتول فيه إلى قاعدة تحتل التصويب والتخطئة ، وساعد على رسوخ هذه الحركة عوامل أدبية وغير أدبية ، وقد ركب هذه الحركة شعراء لهم وزنهم فى الشكل الموزون المقفى ، فأعطوها بعض الشرعية ، وجعلوا لها بعض القبول لدى الناس ، لكن هذه الحركة أيضاً امتطأها العجزة والمقلدون ، ومن لا يستطيعون قراءة الشعر سليماً لا إبداعه ، فشاهت الحركة ، وهى التى قضت - عامدة أو غير عامدة - على جمهرة من شعراء الشكل الخليلي ، الذين استحروا بهم القتل - واقعاً وفناً - فلاذوا بأسوار العزلة ؛ حتى تنجلي الغاشية ، وغدونا نرى شعراء هذه الحركة يقولون - فى الأغلب الأعم - كلاماً وسطاً ، متشابهاً ، لا يمتاز فيه قائل من قائل ، وإن كانوا قد انتصروا إعلامياً ، وغدت لهم الساحة شبه خالية ، إلا مايكون من قبيل ذر الرماد فى العيون ، فيكون فى المهارج العامة قليل من أصحاب الشكل الخليلي ، ونفر قليل جداً فى لجان الشعر منهم ، ولا يكاد يكون لهم صوت مسموع .

لكن يبدو أن الأمور تسير بسرعة غير معهودة ، إذ جاءت الساحة أمة أخرى ، ترى فى الشكل الحر رجعى إلى جرير والفرزدق ، وأن الأوان قد آن «لقصيدة النثر» التى تجرف القصيدة الحرة - وهى تستند إلى التفعيلة العروضية - ودعك إذن من القصيدة الموزونة المقفاة ، فتلك من البرابى القديمة ، التى تتكفل بها هيئة الآثار!!

وعلى الرغم من أن هناك مغازلة من بعض رموز الشعر الحر لأصحاب قصيدة النثر ، محاولة لاحتوائهم ، إلا أن الزمام قد أفلت ، فلا يعترف الأخيرون بأصحاب الشعر الحر ، ويرون فيهم قطعة متلكئة من الزمن الغابر ، وأنهم مجرد ضيوف على زمنهم ، وأن إبداعهم لحق بإبداع الجيل الماضي ، والحياة المتجددة لا تتسع لهم الآن ، فالزمن تجاوزهم تمامًا ، لا أقول ذلك رجماً بالغيب بل هو كلام يتردد في المحافل ، ويتولى كبره بعض المشرفين على أجهزة الثقافة ، فيقدمون هؤلاء «المجددين» ، على أنهم شعراء العصر ، بحسن نية أو بسوئها فالأمر سواء ، ويسحب البساط عمداً من حركة الشعر الحر التي «تخلقت» !!

أيها السادة !! ، ليس الأمر هزلاً ، وليس الأمر أن أمة دخلت فلعلت أختها ، لأن هذه الموجات هينة في حساب تاريخ الأمة ، بل إن الأمر أخطر بكثير ، وهو: اصطلاح بعض أفراد هذه الأمة - إن كانوا منها فعلاً - على قطع الأواصر بينها وبين تراثها ، وإذا نجحت هذه الحركة - لا كانت - فلا أكثر من جيلين ، ولا يكون لنا شعر ولا فن ولا لغة ، وأنا أرى أن هذه الأشياء يخطط لها بدقة ، وأن الدور الآن : موت الشعر الحر لحساب النثر - عفواً «قصيدة النثر» ووراء الأكمة ماوراءها ، وقد جرى «تطبيع» الشعر والموزون المقفى لحساب الهزل ، الذي لم أراه إلا في هذه الأمة ، التي تمكن «أصحاب العاهات» من تجديد لغتها وشعرها ،

أيها السادة : إننى أشم رائحة الفأر !!

الشعرديون العرب

الموازنة باطللة بين الشعر العربى ، وبقية فنون القول المعروفة ، حيث لاجامع بينهما سوى أنهما من فن القول ، ويفترقان فى الجوهر اختلافاً بيناً ، فوزن الكلام يخرج عن طبيعته ، أو يوجد له طبيعة مغايرة ، مع توافر شروط الشعر الأخرى ، هى مسكوت عنها ؛ لأنها معلومة من الفن بالضرورة ، ومن ثم تكون قيمة الشعر وإن كان من جنس الكلام «فإن المسك بعض دم الغزال» ولست متعصباً إلا لأن الشعر يستحق مثل هذا التعصب الموضوعى ، وإلا كان «كله عند العرب صابون» .

الشعر ديوان العرب ، كلمة قالها ابن عباس ، وقالها تاريخ هذا الشعر ونقده على مر العصور ، وإذا كان العرب قديماً يحتلفون بميلاد شاعر ، لأنه لسان القبيلة والمعبر عن مفاخرها ومآثرها ، والذائد عنها ضد أى واغل ، فإنه فى الوقت ذاته لسان نفسه ، وإن تخفى وراء ألسنة كثيرة ، وحسبه هذا تعبيراً عن تجاربه الذاتية ، التى ينشدها منه النقد المعاصر ، وقد اتسعت أوزان الشعر أمام الشاعر ، واتخذها أبناء الأمم الأخرى نظاماً لهم ، يبدعون فيه وبخاصة الأدب الفارسى ، دون أن يشعروا بالضالة ، وطالت فيه قصائدهم طويلاً لانهده فى شعرنا العربى .

وطبيعة اللغة العربية .. وهى لغة وزن واشتقاق ، هى التى جعلت لشعرها ميزة خاصة ، حتى جعلته لغة داخل اللغة ، وإذا كانت قد نشأت فنون قولية أخرى فى هذا العصر خاصة ، فإنها تعلو بقدر قربها من لغة الشعر ، فيقال شاعرية الرواية والقصة والمسرحية والمقال ، بل تعدت هذه الصفة فنون القول لتقول لوحة شاعرية ، ومنظراً شاعرياً ، وسينما شاعرية إلى آخر هذه النعوت .. ربما تتداخل الأجناس لكن يبقى الشعر قوام الأمر وملاكه ؛ لأنه ينفخ الحياة فى أوصال الكلام والأشياء الهامدة ، وربما يستعير الشعر تقنيات الفنون الأخرى ، لكن يظل الشعر : لغة مخالفة ووزناً وإيقاعاً ، وماذلك بالشئ الهين فى نعت الكلام . كما أن الغنائية نسيج مهم فى تكوين السليقة العربية ، فلا تنسلخ عنها ، إلا إذا تبدلت

خلقًا جديدًا ، وقد استزرعنا فنونًا أخرى قولية ، وإن كانت لها بعض جذور عربية ، لكننا «عربناها» فتمزجها بتلك الغنائية مسرحيًا وسينما ، ومسلسلات .. مساوقة للذوق العربى ، الذى يطربه ويهز أعطافه كلمة موقعة ، يحفظها وينشدها ، ويتطرب بها ، وماذلك إلا بفن الشعر .

لقد قال القدماء : إن الشعراء أمراء الكلام ، فهل نقيس عليهم لنقول : إن الشعر أمير فنون الكلام ، وإن كنت أكره الألقاب ، لكن هذا اللقب فى محله الضرورى هنا ، ربما كان الدافع إلى إزاحة الشعر عن عرشه مايعانيه الآن من خصاصة وفاقة ، ومايطل من وراء السطور عن رغبة فى مساوقة فنون الأمم الأخرى ، ولاشئ أدل على الاستخذاء ممن يريد أن يربط فننا الأول بفنون الأمم الأخرى ، وليس لها تاريخ شعرنا ولازهوه الحضارى ، ولادلالته على شرف هذه اللغة ، كما أن هذه الخصاصة تعترى كل الكائنات بما فيها الكائنات القولية ، ولعل من الصواب أن نعزو الخصاصة إلى أبناء الأمة قبل أن نعزوها إلى فن كامل قائم بذاته ، لأنهم أصل الداء ، حين رضوا أن يزبحوا الشعر عن مكانه ، وحين غم عليهم الأمر - جهلاً أو سوء نية - فأطلقوا اسم الشعر على ما ليس بشعر ، لكنها أزمة هينة يصمد أمامها وأمام ما هو أعتى منها فن العربية الأول ، وخير لأبناء الأمة أن تزيج الغبار عن فنها ، وأن تخلع عنه ما ليس بشريف النسب إليه ، ومن ثم تعتدل الموازين ، وتسمو الأذواق ، حيث لاسمو لها دون شعر ، وليكن الشعر طعامًا يوميًا فى رواياتنا ومسرحياتنا وقصصنا ، ومقالاتنا ، ومسلسلاتنا ، وأن نحمله من الواغليين عليه ؛ لأنه ديواننا قديمًا وحديثًا إذا كنا عربًا !!